## اسم المقياس:النص الأدبي القديم-شعر-

# اسم الأستاذ: محمد سيف الإســـلام بـــــوفلاقـــــة

## المستوى:س:01-ليسانس

**يقول الشاعر عبد الكريم القيسي،في قصيدة يمدح فيها الأستاذ البياني،نورد منها هذه الأبيات:**

(من الطويل)

**سَلُوا مَنْ بِها أسلُو لِمَ اختارتِ الصّدّا ولَمْ تَرْعَ لي العَهْدَ القديمَ ولا الوِدَّا**
**لعلَّ لديْها إذْ تُجاوِبُ حُجّةً تُبرِّدُ منْ قلبي بها الشوقَ والوَجْدَا**
**فإنَّ بقلبِي منْ ترادُف صَدِّها لهِيباً يَفوقُ النّارَ قد وُقِدتْ وَقْدَا**
**وقد كُنتُ منها بالتقرُّب آنِساً فصرتُ فقيدَ الأنس مُذْ رامتِ البُعْدَا**
**ولا ذنبَ لي إلاّ اشتِهارِي بحُبّها وكونِي مِنْ بين الأنامِ لها عَبْدَا**
**وأشواقُ قلبِي بالوِصالِ تضَرَّمتْ وما غُمِّضتْ عينِي ولا ملَّت السُّهْدا**
**أُعانِقُ منها الغُصْنَ يهتزُّ ناعماً وألثُمُ منها الخدَّ قد أخجلَ الوَرْدَا**
**وأقطِفُ زهْرَ الرّوضِ من وَجنَاتِها وأرشِفُ من فِيها المُدامةَ والشَّهْدا**
**وَقَدْ جَعَلتْ إحدى يديَّ وسادة وصيّرتِ الأُخرى على عَجَلٍ عقْدا**
**فلِي بالرِّضى الزُّهْرِي منْ آلِ زُهرةٍ تَتَابعُ وصل لا أرى معهُ صَدَّا**
**إمامٌ يؤُمُّ المُعْتنين بسيفه مساءً وصُبْحاً لا يَمَلُّ ولا يَهْدَا**
**ويُبدِي بيانَ المُشْكِلاتِ بفَهْمِهِ فما مُشكِلٌ يَبْقى إذا شَرْحَه أبْدى**
**وَيَبهَر زهْرَ الرّوض رائقٌ بِشْرِهِ فيُقصَدُ دون الرَّوضِ كَيْ يَبْلُغَ القَصْدَا**
**إلى ماله بين الوَرى من فَضائِل تَجَلَّى جلالاً أن يُحاط به عَدَّا**
**ومَازَ فُنُونَ العلمِ منها وفهمها لأعظم فضل مَنْ حَواهُ حوى المجْدَا**
**فأحرَز في علمِ الحديث كمُسْلِمٍ وفي الفقهِ كالمِصْرِيِّ بل فاقهُ جُهدَا**
**وحَصَّل في التفسيرِ كابن عطيةٍ وفي السردِ كالدّاني الذي أحْكَمَ السّرْدا**
**وما ثَّل عِلماً سيبويهِ وشيخَهُ إذا ما عرُوض الشعرِ والنحو قدْ عُدّا**
**وعِلْما أُصُولِ الفقهِ والدينِ فَنُّهُ عَلا فيهِما فوق الذي بهما اعْتَدَّا**

وفي لُغَةِ الأعْراب والطب صيتُهُ بعيدٌ وفي التاريخِ قد جاوز الحدّا
وسابَق في علمِ الحِسابِ وجبْرِهِ سِواهُ وفي التكسيرِ ما إن رأى نِدّا
وأصبحَ في التَّعْدِيلِ بدْرَ هداية وفي المنطقِ المعرُوف أورى الورى زَنْدَا
وأظهر من علمِ البديعِ بدائِعاً وقيّد من علم التصوّف ما نَدَّا
وظائفُ دينٍ بالإمامةِ تُمِّمَتْ حواها وحِيداً واستقلّ بها فَرْدَا
وكانَ مُجِدًّا في القيامِ بحمْلِها وصادفَ وقتاً لم يكن يلحظُ الجِدَّا
فأضْحَى لَزِيمَ الدّارِ سَلْمانَ ببيتِهِ وأظْهرَ في الدّنيا وزُهرتِها الزُّهْدا
فأُفٍّ لدُنيا لمْ تُوَفِّ حقوقه وتبًّا لقومٍ لم يُرَاعُوا لهُ العهْدَا
وعُذْراً لأهلِ العلمِ إنْ أظْهروا الأسى ولا عُذْرَ منهم للذي أظْهرَ الجَلْدا
فيا أيّها الحبْرُ الذي فاق قدرُه عُلوًّا محلَّ البدْر قد قارن السَّعْدا
إليكَ رعاك الهُ مني قصيدة حوتْ من حُلاكَ الغُرِّ أحسنَها بُرْداً
فخُذْها على عِلاّتِها أخذَ عالمٍ وكُن ناقداً منها الذي يقبل النَّقدا
فليس نظامُ الشّعْرِ من شِيَمِي التي أثْجارِي بها في النظمِ مَنْ يُحسِنُ الطَّرْدا
ولكنّني صيّرتُه لي مؤانِساً بأيرة حيث اغتدت فِرقُ الأعْدا
كأُنسي بكتْبٍ جاءنِي مِنْكَ بارع هَصَرتُ به للصَّبْرِ أغصانه المُلْدَا
كتابُ هُدىً حلَّيته بمواعِظٍ بلاغتُها أضحتْ على كَبِدي بَرْدَا
فصرتُ وإن أبحتُ فيها مقيّداً بما فيهِ من آدابٍ استسهلُ القَيْدَا
فما قَبْلَهُ أبْصرتُ واللهِ مِثْلَهُ ولا منْ لآلِي الكَتْبِ حَسَّنَها نَضْدَا
بَقيتَ تُسَلِّي كلَّ نفسٍ بمثلِهِ وتَبْذُلُ مِنْ تأنيسِها الوِسْعَ والجُهْدَا[1]

تجدر الإشارة إلى أن هذه القصيدة، التي جاءت في اثنين وستين بيتاً، أبدعها الشاعر،وهو في السجن،والجدير بالذكر أن الثقافة التي تلقاها عبد الكريم القيسي في مدينة بسطة،خولت له أن يحظى ببعض المناصب الدينية كالإمامة،والتوثيق،وعقد الشروط،وتظهر ثقافته الدينية في هذه القصيدة،فقد تولى إمامة مسجد في مدينة بُرجة،وقد تعرض القيسي في حياته إلى ثلاث محن كبرى على الأقل:

**1-الأسر:**فقد أسر النصارى الشاعر عبد الكريم القيسي،وحملوه إلى مدية آبرة،ولا نُلفي في الديوان وصفاً دقيقاً للظروف التي أُسر فيها الشاعر،ويبدو أن أسباب أسره تعود إلى الأوضاع السياسية خلال القرن التاسع الهجري،والخامس عشر الميلادي،حيث كانت العلاقات بين قشتالة، ودولة بني الأحمر مضطربة،وتمر بفترات سلم وهدنة،بيد أنها في أغلب الأوقات كانت حالة حرب ،وهجوم متواصلة،حيث

---

([1]) ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي،تحقيق:جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي،ص:43 وما بعدها.

إن الحدود بين الجانبين لم تكن مُستقرة،ولا آمنة،فلا نستغرب إذا تكهنا أن القيسي، قد وقع في كمين من الكمائن،في الطريق وهو يتنقل بين مدن المملكة،أو سقط أسيراً في إحدى الهجمات التي قام بها جيوش النصرانية على أرض الإسلام.

وفي ديوان عبد الكريم القيسي نجد أن الشاعر قد أُخذ إلى مدية آبرة،حيث عاش مدة غير محددة، لم تذكر المصادر عدد سنواتها،بيد أنه على ما يبدو أنها طويلة نسبياً،ذلك أننا نلفي في ديوانه قسماً كبيراً من الشعر الذي كتبه من وحي الأسر،كما أنه في ديوانه يُقدم صورة حقيقية عن ظروف الأسير المسلم في القرن التاسع الهجري،فالأسير إبان تلك المرحلة،كان يعيش ظروفاً مؤلمة،فضلاً عن العذاب المادي والنفسي المتواصل.

2-إحراق حانوته:فقد قام بعض المنافسين لعبد الكريم القيسي بإحراق حانوته،فتذمر تذمراً كبيراً جراء هذه الحادثة المؤلمة،فقد أدت الحياة الاقتصادية في غرناطة التي كانت متدهورة بسبب الحرب والفتن،إلى شبه انخرام في مؤسسات الدولة،إلى درجة أنها لم تعد لديها القدرة على تحمل عدد كبير من الموظفين،فقام بعض أعداء الشاعر بإحراق حانوته،ويتضح من خلال شعره أنه تأثر تأثراً بالغاً لهذه الحادثة،بعد أن فقد مصدر رزقه الوحيد.

3-العزل:ذكر الشاعر أنه قد عزل من بعض الخطط لمرتين:الأولى عُزل فيها من خطة التوثيق،والثانية عزل فيها من ولاية منطقة من دولة بني الأحمر،لم يذكرها بالاسم،على الرغم من أنه حاول إخفاء حسرته،وحزنه لهذا العزل،ولم يستطع أن يكتم ما خلفته فيه المحن من آلام في نفسيته[2].

لقد افتتح الشاعر قصيدته المدحية التي يمدح بها الأستاذ الشيخ البياني،بمقدمة غزلية،استغرقت أربعة عشر بيتاً،تحدث فيها عن هجران الحبيبة،وصدها،وعدم تواصلها معه،حيث نفهم أنها قد قطعت حبل الوصال،وأبرز أثر هجرها له، على وضعيته النفسية المكلومة بسبب الأسر،وأوضح ظلم المحبوبة له بهذا الهجر،كما وصف بعض مظاهر جمال جسدها:القد-الوجه-الرضاب،وتذكر الشاعر أيام وصالها،وما تخللته من نعيم.

وعندما نتأمل هذه المقدمة الغزلية، نفهم أن الشاعر قد مر بمرحلتين مع محبوبته"مرحلة الوصال والتمتع وتنعم بقربها،وبالحياة الجميلة، ومرحلة الهجران والجفاء والحرمان،وهذه المقدمة معروفة في الشعر العربي القديم،ومكررة،والكثير من الشعراء يذكرونها على المنوال نفسه، الذي ذكره الشاعر عبد الكريم القيسي،ففي المرحلة الأولى كان يتمتع بأنسها وجمالها،وهذا ما يظهر في جعله لإحدى يديه وسادة لها،وتصييره للأخرى عقداً في عنقها،وفي المرحلة الثانية أعقب هذا التمتع الهجر والصد،فانصرم حبل الوصال الذي سبب للشاعر شقاءً ولهيباً يفوق النار حرارة،بيد أنه يلتمس العذر

---

([1]) ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي،تحقيق:جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي،المقدمة،ص:12.

لسلوك حبيبته،فبعد أن يتساءل عن الأسباب التي جعلتها تختار ما يؤدي إلى الهجر والعذاب،يُجيب بنفسه فيقول: (لعل لديها إذ تُجاوب حجة)،ولعل هذه الحجة تُخفف بعضاً من آلام وأشجان الشاعر عبد الكريم القيسي.

وقد أحسن الشاعر التخلص من المقدمة الغزلية،إلى مدح البياني،ويتضح للقارئ أن الشاعر قد شكل نسيجاً دلالياً واحداً يسري،فلا فرق عنده بين المقدمة الغزلية والمدح،فهي مرتبطة ببعضها،فلا يشعر القارئ بتمزق فيه،وقد تجلى حُسن الربط في قوله:

لئن رَضيت هجري رضِيتُ بوَصْلها وطال مَدَى عَتْبي على ذاك وامتدّا

فلِي بالرِّضى الزُّهْرِيِّ من آل زُهرةٍ تَتَابع وصل لا أرى معهُ صَدَّا

إمامٌ يؤُمُّ المُعْنتين بسيفه مساءً وصُبْحاً لا يَمَلُّ ولا يَهْدَا[3].

في القسم الذي خصصه الشاعر لمدح البياني،اعتمد على جملة من الأدوات البلاغية،ورسم صوراً متميزة لذلك الممدوح،وقد تبدى لنا أن الصور التي وضح من خلالها الشاعر عبد الكريم القيسي أخلاق الأستاذ الشيخ البياني،وفضائله المتعددة،هي صور مألوفة ومتداولة في المدح العربي القديم،حيث إننا لانلفي جديداً فيها،وهي على النحو الآتي:

أ-**الكرم والجود**:فقد بدا عطاء الممدوح لا ينقطع،وليس له نظير،فهو مستمر صباحاً ومساءً كما عبر عن ذلك الشاعر تعبيراً صريحاً في أحد أبياته،ومع استمراريته في العطاء، فهو لا يكل ولا يمل مما يفعل،ومن جوده الذي لا يتوقف.

ب-**ذو فهم ثاقب،وعلم غزير،وله اطلاع عميق وواسع** : فقد بدت صورة الأستاذ البياني في قصيدة عبد الكريم القيسي على أنه لديه قدرة فائقة على حل المشكلات،حيث إنه يتميز بفهم عميق وثاقب،وذكاء حاد كما نفهم من بعض أبيات القصيدة،فما من مسألة علمية إلا ويلفي لها حلاً مُقنعاً،ويُضفي على حله شرحاً واضحاً ودقيقاً،يُفهم به المتلقي،ويتميز علمه بالغزارة في فنون شتى،وميادين عدة:في علم النحو

والعروض،والأصول،والفقه،والطب،والتاريخ،والحساب،والجبر،والمنطق،والبديع،والتصوف،وغيرها من سائر العلوم التي فصلها الشاعر في أبيات محددة،وقد تميز الأستاذ البياني كما يظهر من خلال قصيدة الشاعر بأنه ذو صيت بعيد جاوز الحد،وأظهر ما لم يُظهره غيره،إلى درجة أنه ليس له ند ولا قريب،ومن ثمة يكون قد حاز فنون العلم وحده،وبإتقان،وفي هذا التصوير الكثير من المبالغة التي عهدناها في شعرنا العربي القديم في مدح الممدوحين...

ج-**العدل والمساواة في الأحكام،مع تجديد رسم العدل**: فقد أبرز الشاعر عبد الكريم القيسي،أن الممدوح يتميز بعدله بين الناس،فيما يُصدره من أحكام،وذلك على الرغم من أن جملة من التحديات

---

([2]) ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي،ص:44.

والصعوبات كانت تواجهه،وتعتريه في ذلك،فقد يعدل بين الخصمين في مجالسه بالمحكمة،وكثيراً ما أمن الخائف،وأيد المظلوم،وهدد الظالم،وهو يسعى دائماً إلى فتح باب الحق من بعد ما انسد وانغلق، كما أنه أغلق باب الظلم من بعد ما فُتح وشُرع طويلاً،ومن خلال هذا الوصف نفهم أن هناك جُملة من الأوضاع السيئة،والمُزرية في المرحلة التي عاش فيها الشاعر عبد الكريم القيسي بمدينة غرناطة.

**د-وصف علو مكانة الممدوح:** حيث بين الشاعر أن مكانة ممدوحه الأستاذ الشيخ البياني،ارتفعت إلى محل البدر سناءً،وسنى مع نوع من التجاوز في العلو والرفعة إلى حد كبير.

**هـ-الختام بالدعاء والإهداء:** فقد دعا الشاعر للممدوح بأن يرعاه الله،ويصونه،ففي رعايته وصيانته،صيانة ورعاية للشاعر نفسه،وقد أهدى الشاعر القصيدة إلى الممدوح،وهذه الطريقة تقليدية،ومعهودة في الشعر العربي القديم،حيث يختم الشاعر القصيدة بالدعاء والهداية فيفهم المتلقي على أنه على وشك الانتهاء.

وعندما وصف الشاعر هديته للممدوح،والتي هي القصيدة التي أبدعها في مدحه، يذكر بعض الأشياء التي لها علاقة بها،فيتحدث عن شعره الذي كتبه،ولم يقصد به مجاراة فحول الميدان،وإنما جعله نوعاً من المؤانسة له، وهو يواجه آلام ووحشة السجن في آبرة،فكلما استأنس برسالة وصلته من أستاذه الممدوح،والمراسلة بينهما تظهر العلاقة الوثيقة التي تجمعهما،ولعلها علاقة مهنة، فالممدوح كان قاضياً،والشاعر عدلاً،وفرحة الشاعر بالرسالة هي تعبير عن عناية الممدوح له،وهي كذلك تُبرز آماله،وطموحاته في الخروج من السجن،وفك أسره.

إن كل من يقرأ القصيدة يفهم أنها غارقة في النزعة التقليدية،فمعانيها هي ذات المعاني التي عرفناها في الشعر العربي القديم،فبذكره للفضائل،لم يخرج عن الفضائل التي حددها قدامة بن جعفر،في كتابه النقدي: « نقد الشعر»،وقد حصرها في الشجاعة،والعقل،والعفة،والعدل،بيد أن الشاعر عبد الكريم القيسي في هذه القصيدة، التي يمدح بها الأستاذ الشيخ المعروف بأبي عبد الله البياني،لم يتناول الفضائل المذكورة من قبل قدامة بن جعفر جملة،أي أنه لم يتناولها مجتمعة،ومثل هذا التعامل الجزئي مع الفضائل من قبل الشاعر،هو الذي حدا به إلى تتبع جزئياتها،والوقوف على خواصها،حيث أجاد القول أيما إجادة،ولاسيما عندما فصّل في عدل الممدوح وعلمه الواسع.[4]

وقد تميز أسلوب القصيدة في أغلبه بالسهولة والوضوح في العبارة،فلا نلاحظ أن الشاعر تكلف استخدام الألفاظ الغريبة والحوشية،فهي جد عادية،وقد أحسن الشاعر توزيعها في جمل متنوعة،اسمية تارة،وفعلية في أغلب الأحيان،وقد اتضح أن الجانب الخبري طغى على الجانب الإنشائي، وإذا كان الشاعر في هذه القصيدة،قد تناول موضوع المدح«فإنه بذلك اختار للتعبير عن ذلك لغة مناسبة،لغة الوقار،والتعظيم في وصف الواقع،وتقريره دون أن يكون لهذه اللغة وقع مخيف على

---

([1]) قاسم الحسيني: الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري موضوعاته وخصائصه،ص:118 وما بعدها.

**آذاننا،ولا شك أن مثل هذا الأسلوب في نظم الكلام يتطلب المهارة والبراعة،قد لا يقدر عليه إلا الشاعر الذي وهب إحساساً مُرهفاً في تذوق الموسيقى اللفظية،وإدراكاً من الشاعر ما لأهمية الإيقاع في الشعر،عمد إلى اختيار هذا الانسجام الرائع في القصيدة بين إيقاعات الكلمات والحروف والبحر العروضي والقافية،فعلى مستوى الحروف نجد التراكيب في الكلمات،قد روعي فيها حسن التأليف،وهي بعيدة عن تنافر حروفها في توزع رائع لا فت للانتباه،وإذا كان العربي نفر من حروف الحلق حين اجتماعها،فإن الشاعر عرف كيف يوزعها فأتت منسجة».[5]**

**ويظهر أن اللغة التي وظفها الشاعر لم يبغ من خلالها التكلف،والإغراق ،والغموض،كما لم يسع إلى المحسنات قصداً،فقد جاءت اللغة واضحة وسهلة،ونقلت الأحاسيس إلى المتلقي دون شعوره بالتكلف.**

---

**([1]) قاسم الحسيني: المرجع نفسه،ص:122.**